'أهل الشريعة' والثقافة الإنسانية.. الأردن نموذجاً

04-6-2005

فلا يحتاج الراصد والمتابع أن يكشف عن حجم الضعف الشديد الذي تعاني منه مناهج التدريس في كليات الشريعة في مجال العلوم الإنسانية، إذ لا تكاد تعثر على أي مرجع أو مساق يتناول قضايا الفكر الإنساني أو حقوق الإنسان والحريات العامة والحضارات الإنسانية المختلفة، ولا تجد هناك تدريس معرفي بنائي لمصادر للجانب الإنساني في أفكار وشخصية طالب العلوم الشرعية، على الرغم من وجود العديد من المصادر التي يمكن البناء عليها وتدريسها وتطوير مدارك وأفكار الطلاب في هذا المجال،

بقلم محمد أبو رمان

أصبحت قضية تغيير مناهج التعليم الشرعي مطلبا أميركيا، وإذا كان الهجوم الإعلامي الغربي تركز في الآونة الأخيرة على دول كالسعودية واليمن وباكستان، فإن هناك حديثا إعلاميا مواز موجها لدول أخرى تشترك في العملية السلمية مع دولة الاحتلال الإسرائيلي. فأصبح الموضوع ذات طابع جدلي تنقسم حوله الآراء تبعا للموقف من العملية السلمية أو السياسة الخارجية الأميركية! الأمر الذي أفقدنا البوصلة الصحيحة في النظر إليه، وغيب زوايا النظر المطلوبة تحت وطأة جدل سياسي أيدلوجي.

بلا شك، من حق المثقفين والعلماء والكتاب الإسلاميين الاحتجاج على المطالب الأميركية ودواعي التغيير المطروحة في هذا السياق، ورفضها وكشفها، فهذه مسألة وطنية حضارية لا نقبل أي تدخل أو شروط فيها، كما أن المطالب الأميركية تلبي مصالح سياسية ورؤية ثقافية حضارية مغايرة، يمثل الوقوف في وجهها حق بل واجب تاريخي وشرعي. لكن في المقابل يجب ألا يصرفنا هذا الموقف عن الاهتمام بدواعي التغيير الذاتية والموضوعية لهذه المناهج، وإعادة النظر في عملية التعليم الديني الإسلامي وآلياته ومناهجه وقضاياه المختلفة. لماذا؟.. لأن المخرجات الحالية لهذا التعليم تظهر فقها متشددا في التعامل مع مختلف أبعاد الحياة العامة، ومستوى من الخطاب الإسلامي الرسمي يمتاز بالجمود، والخطاب الإسلامي الشعبي غير المنضبط والمتسم في كثير من الأحيان بتفضيل الأحكام الشرعية الجزئية على المقاصد العامة والقيم الإنسانية العليا. والأخطر من هذا وذاك هي صورة "إمام المسجد" في كثير من الأحيان، والتي تتلبس بأفكار ومفاهيم سلبية ترتبط بمستوى درجات القبول لطلاب كليات الشريعة، وهي درجات متدنية تنعكس على مستوى معلمي المدارس والأئمة وربما بعض مدرسي الشريعة في الجامعات.

إذن؛ هناك حديث طويل في موضوع إصلاح التعليم الديني وتطوير مناهجه يبدأ من مناهج التربية الإسلامية وحصصها في المدارس، ويمر بمعدلات القبول لطلاب كليات الشريعة في الجامعات والمناهج التي تدرس لهم، ومستوى الدخل الشهري ودور المؤسسة الدينية الرسمية والمؤسسات المدنية ذات الصبغة الإسلامية، وأخيرا ما يمكن أن نطلق عليه "إدارة المساجد" والمراكز الإسلامية، وكلها عناوين تتطلب قراءة جديدة ومراجعة فكرية حقيقية تدفع باتجاه التجديد والتطوير. ويأتي في مقدمة العناوين التي يجب أن تطرح في موضوع "التعليم الديني" قضية المناهج الإنسانية في كليات الشريعة، أو الجوانب الإنسانية في المناهج الشرعية، والتي نقطة ضعف ملاحظة في هذه المناهج سواء في الأردن أم كثير من الدول العربية.

فلا يحتاج الراصد والمتابع أن يكشف عن حجم الضعف الشديد الذي تعاني منه مناهج التدريس في كليات الشريعة في مجال العلوم الإنسانية، إذ لا تكاد تعثر على أي مرجع أو مساق يتناول قضايا الفكر الإنساني أو حقوق الإنسان والحريات العامة والحضارات الإنسانية المختلفة، ولا تجد هناك تدريس معرفي بنائي لمصادر للجانب الإنساني في أفكار وشخصية طالب العلوم الشرعية، على الرغم من وجود العديد من المصادر التي يمكن البناء عليها وتدريسها وتطوير مدارك وأفكار الطلاب في هذا المجال، ابتداء من البحث عن هذه القضايا في الوحي (الكتاب والسنة)، أو الأصول الفقهية الإسلامي ككتاب الموافقات للشاطبي، أو مصالح الأنام للعز بن عبد السلام أو العديد من الكتب الأخرى التي تعالج هذا الموضوع.

في المقابل، هناك اعتماد على بعض الكتب التي تأخذ اتجاها واحدا في قراءة الحضارة الإنسانية والفكر البشري كما هو الحال في كتاب "مذاهب فكرية معاصرة" للشيخ محمد قطب الذي يدرس في كليات شريعة منذ سنوات، وهذا الكتاب وإن كان فيه جانب قيم من النقد الفكري الحضاري لمذاهب فكرية غربية، إلا أنه لا يكفي على الإطلاق كي يشكل مرجعا تكوينيا لطلاب الشريعة فهو لا يعرض إلا جانبا واحدا ورأيا محددا مختزلا لهذه المذاهب، في حين يتطلب تكوين الثقافة الإنسانية لطالب الشريعة العودة إلى

المصادر المعرفية الرئيسة للفكر الإنساني والإطلاع عليها وقراءتها قراءة نقدية، بالإضافة إلى سبر الجوانب والمجالات الإنسانية في العلوم الشرعية.

هذا الضعف في الجانب الثقافي والتكويني لطلاب الشريعة أنتج ضعفا وخللا واضحا لديهم سواء في التفاعل مع المجتمع ومتغيراته، أو في الخطاب الإسلامي المتعلق بالعديد من القضايا المهمة، فهناك خلل في الرؤية لموضوع العلاقة مع الآخر والعالم، والمرأة، والجمال والفنون، والثقافة الإنسانية، وقضايا حقوق الإنسان والحريات وحقوق الأقليات، وفهم الظواهر الاجتماعية. بل وفي تصور كثير من أهل الشريعة للعلاقة مع الله وعالم الغيب!.. وبدلا من الرؤية التنويرية المتقدمة التحليلية للظواهر المحيطة يتخذ الخطاب الإسلامي طابعا دفاعيا اتهاميا مشككا. وتظهر فجوة كبيرة بين اللغة التي يتداولها "أهل الشريعة" وبين اللغة الاجتماعية والثقافية التي يتداولها أهل الفكر والثقافة الإنسانية.

ولتجاوز هذا الضعف لا بد من إدخال قراءات إنسانية في مناهج كليات الشريعة، إما من خلال مساقات متعددة في الفكر الإنساني والاجتماعي والسياسي والثقافي، وإما من خلال الاهتمام بالجانب الإنساني في المصادر الشرعية وفي كتب التراث والفقه الإسلامي، وبتقديري فإن هذا كفيل بتحسين مخرجات كليات الشريعة، وسيمثل بداية تحول في الخطاب الإسلامي باتجاه الاعتدال والتعبير عن مقاصد الشريعة وغاياتها وفلسفة الأحكام وتجسير الفجوة بين "لغة الشريعة" و"لغة العصر".